الحياة الطيّبة
السنة ١٦
العدد ٢٧
شتاء - ربيع ٢٠١٣ م
ملف أبحاث ودراسات

الانحراف عن السنن الكونية وسبل المعالجة - تأصيل قرآني -

الأستاذ الدكتور أسعد السحمراني[١]

مقدّمة وإشكالية:

لقد خلق الله تعالى الكون بكلّ مكوّناته وعناصره وفق سنن إلهية تضبط حركة كلّ كائن، وتجعل حالة من الانتظام تحكم علاقاته مع المخلوقات الأخرى. وأودع الخالق سبحانه في كلّ مخلوق خصائص وقدرات تحدَّد على أساسها جنسه، ودوره، ووظيفته. قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[٤].

لقد سخّر الله تعالى ما في الكون للإنسان، وكتب له التكريم، وفي الوقت عينه أمره بأشياء ونهاه عن أخرى، وأودع له في كل سنّة كونية مقاصد، وجعل لها مبادئ، وكانت بناءً على ذلك أحكام وضوابط. وحين ينحرف الإنسان عن التشريع الإلهي وعن السنن الكونية يُوقِع نفسه في

(١) أستاذ العقائد والأديان المقارنة في جامعة الإمام الأوزاعي في بيروت.
(٢) الإسراء: ٧٧.
(٣) الأحزاب: ٦٢.
(٤) فاطر: ٤٣.

المهالك والمعاصي.

وجعل الله تعالى للإنسان قوى عقلية، وأخرى نفسية، وثالثة جسدية، وتفاعل هذه القوى يكوّن ميول الإنسان واتّجاهاته، بعد أن تكون قد تكوَّنت شخصيّته. وفي صيرورة الإنسان يكون في أحد حالين:

- حال من الالتزام والطاعة، بحيث تسير وفق ذلك حياته بتوازن واعتدال، ولا يكون عنده إفراط ولا تفريط.
- حال من العصيان والفسوق عن أمر الله تعالى. وهنا، يكون منحرفاً زائغاً عن محجّة الصواب، ويصبح من أهل الإفراط أو التفريط، أو الانحراف.

إنّ كلّ حيدٍ عن سنّة، أو كلّ مخالفة للفطرة الإنسانية، وكلّ سلوك يعاند سنّة الله تعالى في خلقه، أو سلوك يخالف ما أمر الله تعالى به، أو يتَّبع ما نهى عنه، إنّما يُفضي كلّ ذلك بصاحبه إلى الانحراف.

لقد أعطى الله تعالى للإنسان نعمة العقل، وسخَّر له ما في البرّ والبحر، وكانت بعثة الرسل عليهم السلام، حتى لا يكون لأحد حجّة، وبعدها يكون الاختيار لكلّ شخص، فإمّا أن يطيع وإمّا أن يعصي، ويكون الجزاء الأخروي حسبما كسب الإنسان، قال تعالى: ﴿لها مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1].

تفيد الإشارة في هذه المقدّمة التأصيلية القرآنية إلى حالتين من الانحراف والعصيان وردتا في النصّ الموحى، هما:

حالة آدم وحواء عليهما السلام حين أسكنهما الله تعالى الجنّة، فكانت وسوسة الشيطان التي أخرجتهما ممّا كانا فيه. قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فتكُونَا مِنَ الظَّالمينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فيه وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2].

ثمّ كان فتح باب التوبة ليكون سنّة إلهية بعد ذلك، شرط أن يلتزم

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) البقرة: ٣٥-٣٦.

التائب شرع الله تعالى الذي يشكّل سبيل الهداية، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٢].

حالة ابني آدم والتقدمة للقرابين، والحسد الذي أوغر صدر أحدهما على أخيه، فقتله، وكان بذلك أن سنّ قابيل سنّة القتل التي تؤسّس للظلم، وسنّ هابيل سنّة التقوى وطاعة الله تعالى ممتنعاً عن فعل القتل، لأنّ من قتل نفساً لغير عقوبة ووضع للحدّ، فكأنّما قتل الناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣].

هذه حكاية مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا التي هي دار عمل ولا حساب، وسيلقى جزاء على ما كسبت يداه في دار حساب ولا عمل. والإنسان حرّ مختار، وله الإرادة والقرار. قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٤].

وأمام هذا الواقع، وعندما يراجع المتابع القصص القرآني يجد ما حلّ بالأمم التي انحرفت، وما كان مصيرها، وكذلك حال الشعوب والأمم عامّة. وبالتالي يصل الدور إلى السؤال التالي: هل الانحراف أصل ولا مناص منه؟ أم أنّ النجاة ممكنة حين يلتزم الإنسان الصراط المستقيم

(١) البقرة: ٣٧.
(٢) طه: ١٢٣- ١٢٤.
(٣) المائدة: ٢٧-٣٠.
(٤) الإنسان: ٣.

والأمر الإلهي؟

ويعيش الإنسان في عالم اليوم تحدّيات تؤرّقه في مسارات عديدة، من السياسة، والأمن، والاقتصاد، والاجتماع، والقيم الأخلاقية... وبكلّ حُرقة يطرح الفضلاء من الناس السؤال التالي: هل من سفينة نجاة؟ وهل الإصلاح ممكن؟ وما السبيل لمسار إصلاحي ينهي معاناة الإنسان ويحقّق له عيشاً كريماً؟

يحتاج بحث هذه الإشكاليات إلى كتب وتسطير صفحات، وسياق البحث - كما أرى- يطبِّق عرض موضوعين، اعتماداً على التأصيل القرآني، هما: الشذوذ، استناداً إلى فعل قوم النبي لوط عليه السلام، وموضوع الماء والتلوُّث.

أولاً: قصة قوم النبي لوط عليه السلام وشذوذهم وسبل المعالجة:

انحراف قوم النبي لوط عليه السلام:

جاء عن المسعودي من قصّة النبي لوط عليه السلام وقومه: «**وأرسل الله لوطاً إلى المدائن، وهي سدوم، وعمورا، وأدمونا، وصاعورا، وصابورا. وإنّ قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة، وهذا الاسم مشتق من الإفك، وهو الكذب على رأي من ذهب إلى الاشتقاق. وقد ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾**[1]. **وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز ممّا يلي الأردن وبلاد فلسطين، إلا أنّ ذلك في حيّز الشام، وهي مُبَقّاة إلى وقتنا هذا**»[2].

وقد شذّ قوم النبي لوط عليه السلام، فمارسوا المثلية بين الذكور، وجاء الخطاب الإلهي بلسان النبي لوط عليه السلام لقومه، في قوله تعالى: **﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾**[3].

(١) النجم: ٥٣.
(٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط٥، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٣هـ.ق/ ١٩٧٣م، ج١، ص٤٥.
(٣) الأعراف: ٨٠.

وبسبب ممارستهم الشاذّة هذه، بإعراضهم عن السّنّة الكونية في الزواج من النساء، وميلهم المنحرف إلى إتيان الشهوة بين الذكور والذكور، حلّ عليهم غضب الله تعالى، فكانوا من الأمم البائدة، وأمطر عليهم حجارة من السماء أهلكتهم.

يقول المسعودي:«**والحجارة المسوّمة موجودة فيها يراها الناس السّفّار سوداء برّاقة، فأقام فيها لوط عليه السلام بضعاً وعشرين سنة يدعوهم إلى الله، فلم يؤمنوا، فأخذهم العذاب على حسب ما أمر الله من شأنهم... وأهلك الله قوم لوط عليه السلام في عهد إبراهيم عليه السلام، لِمَا كان من فعلهم، واتّضح من خبرهم**»[1].

ورود في تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) الحكم الشرعي على من أوقع معصية كان يمارسها قوم لوط عليه السلام :«**كان بينهم فاعل، وكان منهم راضٍ، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه، وهي حكمة الله وسنّته في عباده، وبقي أمر العقوبة على الفاعلين مستمرّاً. والله أعلم. وقد روى أبو داود، وابن ماجة، والترمذي، والنسائي والدارقطني، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**»[2].

وقد أكّد القرطبي الحكم في بحث من يمارس فعل قوم النبي لوط عليه السلام ، بإيراد واقعة حصلت زمن خلافة أبي بكر وقضى فيها بما أشار به الإمام علي عليه السلام :«**وقد روي عن أبي بكر الصديق أنّه حرّق رجلاً يُسمّى الفجاءة حين عمل قوم لوط عليه السلام بالنار. فإنّه لمّا كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر ذلك، جمع أبو بكر أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستشارهم فيه، فقال عليّ عليه السلام : إنّ هذا الذنب لم تعصِ به أمّة من**

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، م.س، ص٤٦.
(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشارك فيه محمد رضوان عرقسوسي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٧هـ.ق/ ٢٠٠٦م، ج٩، ص٢٧٤-٢٧٥.

الأمم إلا أمّة واحدة، صنع الله بها ما علمتم. أرى أن يحرّق بالنار. فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يُحرّق بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار، فأحرقه»[١].

إنّ قوم لوط عليه السلام، أو سكان سدوم، كانوا يقومون بفعل خبيث فيه فساد وشواذ. ورغم بعثة لوط عليه السلام وسعيه لتخليصهم ممّا هم فيه، ونقلهم إلى سلوك يناسب سنّة الله في البشر التي هي الزواج بين الذكور والإناث، عاندوا وعصوا ونووا إيذاء لوط عليه السلام، فكتب له الله تعالى النجاة من مؤامراتهم. قال تعالى: **﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾**[٢].

أمّا الفعل الخبيث الذي كانوا يمارسونه فقد جاء به النصّ القرآني بشكل صريح، لأنّ القاعدة هي: «**لا حياء في العلم**». وجاء في هذا قوله تعالى: **﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾**[٣].

لقد حضّ الإسلام على الزواج، ورغّب فيه، كي ينال الإنسان المتعة المناسبة للفطرة، ولتحقيق مقصد آخر هو:«حفظ النسل والعرض». فالزواج يثمر السكن والاستقرار، وهو أساس لتكوين الأسرة وانتظام العلاقات بين الزوجين بالشكل المشروع. والمقصد الأهمّ هو الإنجاب لحفظ النسل، والتكاثر، فبذلك ينجز البشر الميل الفطري في الحفاظ على النوع. قال تعالى: **﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾**[٤].

إنّ الزواج هو العلاج الطبيعي للشذوذ، وممّا يسمّى المثلية في

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م.س، ج٩، ص٢٧٥.
(٢) الأنبياء: ٧٤.
(٣) الشعراء: ١٦٥-١٦٦.
(٤) النحل: ٧٢.

العلاقات(Homo-sexuelle). والزواج تحصين لكلا نوعي الجنس الآدمي، وفي الحديث النبوي الشريف:«**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة[١] فليتزوّج، فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنّه له وُجاء[٢]**»[٣].

لكنّ وساوس الشيطان من الإنس أو الجنّ والتربية غير السليمة التي تضع بعض الأفراد في مناخات الرذائل، والعِقَد النفسية والاجتماعية، تدفع مثل هؤلاء إلى ميول مناقضة للفطرة، ويكون من هذا الاتّجاه: الانحراف، والمنحرفون أشخاص غير أسوياء، لأنّ الإنسان السويّ يكون معتدلاً وسطيّاً متوازناً في أقواله وأفعاله.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشذوذ والانحراف الذي يظهر من ممارسة ما كان يفعله قوم النبي لوط عليه السلام قد أسهم في نقل مرض فقدان المناعة (AIDS) أو (SIDA). ويفيد بعض الإحصاءات أنّ الانحراف قد أنتج نسبة (٨٠ بالمئة) من مجموعة المصابين بمرض نقص المناعة أو فقدان المناعة. وعليه فمعالجة الأمر تصبح ضرورة على مستوى الفرد والمجتمع[٤].

أبرز سبل المعالجة:

تحتاج معالجة مرض الشذوذ الذي يظهر في سلوك يتوافق مع ما كان يفعله قوم النبي لوط عليه السلام (السدوميون)، أن يصار إلى الخطوات التالية:

تربية الناشئة تربية متوازنة تعتني بجوانب الشخصية الإنسانية التي هي: الروح، والنفس، والعقل، والجسد، لأنّ أيّ خلل أو نقص في جانب منها سيعكس نفسه خللاً في الشخصية. والشخصية التي تصاب بخلل يتسرّب

(١) الباءة: القدرة على الزواج.

(٢) وُجاء: كابح للشهوة - وقاية.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، لاطن لامن دار الفكر، ١٤٠١هـ.ق/ ١٩٨١م، كتاب الصوم، ص٢٢٩.

(٤) اقتراح: قبل الحديث عن سبل المعالجة أقترح على المفكّرين وأهل الفقه والعلوم الدينية أن يتوقّفوا عن تداول مصطلحي: لواط وسحاق. ويكون البديل أن يقال: فعل قوم لوط أو السدوميّة، أو فعل قوم إسحاق.

إليها ميول انحرافية، ونوازع شذوذ تؤدّي بها إلى ما لا تُحمد عُقباه.

الأسرة المستقرّة حضن دافئ للطفل السوي، أمّا الأسرة التي تتأسّس على علاقات زوجية مضطربة، أو يطغى عليها الأسلوب الديكي في التعامل بين الزوجين، ويتمثّل ذلك في حالات من الشقاق والنزاعات التي تولّد اضطرابات نفسية عند أبناء الأسرة، ناهيك عن حالات أخطر، كالطلاق، أو وجود أبوين مهملين يسلمان أولادهما للخادمات والأمّهات البديلات، أو إذا كان أحد الأبوين من المنحرفين أو المدمنين، كلّ ذلك يشكّل المصدر والبيئة المنتجة للأطفال المشرّدين غير الأسوياء، وهؤلاء هم مشاريع شذّاذ. وبهذا يكون المطلوب أن تُقام الأسرة على قواعد المودّة والسكن والتراحم والاستقرار والتزام منظومة القيم المؤسسة على التشريع الديني، لتعطي الأسرة أجيالاً واعدة لا أفراداً منحرفين ومرضى.

تعميق الإيمان الديني في فكر الفرد نفسه وعواطفه وميوله وصولاً إلى اليقين، وبعده الإحساس الذي يُشعِره برقابة الله تعالى عليه، وينشّط ضميره، بحيث يكون النداء الداخلي فيه يقظاً مؤسَّساً على التشريع، فيأمره وينهاه، منادياً من أعماقه: افعل أو لا تفعل، أقدم أو تراجع. هذه التربية تحتاج التجديد في الخطاب الديني ليكون مرتبطاً بالأصل الشرعي، ومواكباً للعصر. والمشكلة - اليوم- تكمن في نوعين من الخطاب، هما: الخطاب التقليدي الذي لا يستميل المستمع والمتلقّي، والخطاب الانفعالي أو الموتور الذي يتأسّس على العصبيّات الرديئة، والأهواء التي تحيد بصاحبها عن جادة الصواب.

الإعلام والحاجة إلى وضع ضوابط له. فالإعلام بأنواعه، الورقي، والبثّ الفضائي، والإلكتروني، يشكّل المادّة الأساس للمعارف والقيم عند الإنسان. وهذا الإعلام تحكمه مدارس فكرية ونظريات، ويفسده المقصد التجاري الذي يستهتر بالقضايا الرئيسة، وينحرف بمن يتابعه إلى مستويات وضيعة تكون لها مردودات سلبية. وكلّ متابع يلمس نتائج هذا

التحدّي، ويكتشف أنّ تسويق المفاسد، والرذائل، والإدمان، والشذوذ، يشكّل الإعلام منبعها الأساس. والسبيل إلى المعالجة، يكمن في أن يكون الإعلام وسيلة موظَّفة لتعميق الإيمان الديني بلا تعصّب، وفي غرس منظومة قيمية ثوابتها الخير، والحقّ، والعدل، والجمال، ومقاومة رذائل الشرّ والباطل والجور والقبح.

الربط المحكم بعناية بين التربية والتعليم. والملاحظ مالياً أنّ كثيراً من مواقع التحصيل العلمي تمارس التعليم بلا تربية، أو أنّها لا تعير التربية القدر الكافي لتقدّم للناشئة الجرعة التربوية الإعدادية التي يحتاجونها. وهذا الجانب يحتاج لإعادة النظر في المناهج والمقرّرات ومحتوياتها، ومعايير اختيار المعلّمين، ومن ثمّ إعدادهم. هذا مع تثبيت قاعدة: نظام القدوة، لأنّها فيصل أساس في شخصيّة المربّي الناجح.

إضافة مواد للتوعية الصحّيّة، بما فيها الثقافة المتعلّقة بالفوارق العضوية بين نوعي الجنس البشري (الذكر والأنثى)، وبالتحوّلات التي تواكب مراحل النمو من الطفولة، إلى البلوغ، وإلى ما بعد البلوغ... هذا مع ثقافة جنسية تتعلّق بالزواج والإنجاب، على أن تكون الجرعة المعرفية متناسبة مع العمر والنضج العقلي والمحيط الذي نشأ فيه الطالب، أو الذي يحيط به.

العمل على نشر ثقافة اجتماعية قاعدتها: «**الزواج سنّة كيف نيسّره؟**»، لأنّ الزواج في سنّ مبكرة يحصّن الجيل، ويؤمّن إشباع الحاجات العضوية والنفسية عند الإنسان بالشكل المشروع. أمّا زيادة المطالب والشروط التي تؤخّر سنّ الزواج - كما هو حاصل - في بيئات كثيرة، فإنّه يدفع الشخص إلى الأساليب الملتوية للتعبير عن دوافعه، وإلى الأفعال الشنيعة وغير المشروعة، ومنها الانحراف وما ينتج عنه من مُوبقات. وواجب المعنيين جميعاً العمل لتسهيل إتمام عملية الزواج من خلال التخفيف من المطالب المادّية.

التخطيط لتأسيس فعاليّات تنشيطيّة للشباب، كالرياضة، والتدريبات، والعمل التطوعي، والكشّافة، والفنون الراقية، كي يصرف الشباب طاقاتهم من خلالها، ويشغلوا أنفسهم. وقد قيل قديماً:«**البطالة تورق الرذيلة**». ويقال:«**الفراغ نبع للرذائل**». والمجتمع الذي يريد تحصين أبناءه هو الذي يقيم المؤسّسات الأهلية التي تؤمِّن مناخاً لا يترك مكاناً لفراغ فكري أو نفسي أو لطاقة جسدية قد يوجّهها المفسدون إلى غير ما يخدم بناء جيلٍ واعدٍ.

ثانياً: الماء وانحراف التلوّث وسبل المعالجة:

الماء وانحراف التلوّث:

يعيش الإنسان في هذه الحياة في بيئتين:

بيئة اجتماعية لها قيم ناظمة لعلاقات الناس فيما بينهم. ولكلّ مجتمع أو أمّة ثقافته. وهذه الثقافة هي التي تقود الحركة الحضارية بكلّ إنجازاتها، أو استخدام تقنيّاتها. وفي هذا يَرِد موضوع الاجتماع في الجانب القيمي الأخلاقي. ومادّة العنوان السابق في هذا البحث عن سلوك قوم لوط عليه السلام جاءت لتعرض موضوعاً من هذه البيئة وتقترح خطوات للمعالجة.

بيئة جغرافية هي المكان الذي يعيش فيه الفرد، أو يقوم عليه مجتمع الأمّة، وهذا المكان يشمل التربة، بثرواتها، وخصائصها، والماء، والهواء، والموقع وخصائصه المستفادة منه، والطبيعة (صحراء، أو جبل، أو على شاطئ بحر، أو على ضفة نهر، أو على موقع ماء عذب، أو ندرة في الماء...). وموضوعنا هذا يأتي تصنيفه في هذا الفضاء البيئي.

الماء في التأصيل القرآني:

احتلّ مصطلح الماء مكاناً مميّزاً في الآيات البيّنات، حيث يُبيِّن

موقع الماء في مسار الحياة، فالماء سائل الحياة، وهذا هو الصحيح في توصيف وظيفته، لأنّ الكائنات الحيّة من النبات، إلى الحيوان، وإلى الإنسان محتاجة في قوام حياتها إلى الماء، ومن دونه لا استمرارية لحياة هذه الكائنات. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[١].

إنّ الانتقال من الموت إلى الحياة لا يكون دون الماء، بوصفه العنصر الأساس في تكوين كلّ كائن حيّ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٣].

هذا الإحياء بالماء يشمل نبات كلّ شيء، وكلّ مخلوق حيّ، حيث إنّ الإنسان المخلوق المُستَخلَف في الأرض والمكرّم كان تكوينه من الماء في رحم أمّه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[٤]. والماء المهين هو الضعيف. وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾[٦].

وإذا كانت الطهارة مطلوبة من كلّ مؤمن، فإنّ الماء له الموقع الأوّل في تحقيق هذه الطهارة البدنية، تمهيداً وركناً لأداء أيّ عبادة. والماء احتلّ في هذا الباب مكانة في العبادات عند أتباع الرسالات السماوية، وعند سواهم من أصحاب المعتقدات الوضعية. أمّا في النصّ القرآني فقد جاء قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾[٨].

ويشير أهل الاختصاص إلى أنّ الأرض تشكّل ٧٠ بالمائة من الماء

(١) الأنبياء: ٣٠.
(٢) البقرة: ١٦٤.
(٣) النحل: ٦٥.
(٤) السجدة: ٨.
(٥) الطارق: ٥-٦.
(٦) الفرقان: ٥٤.
(٧) الأنفال: ١١.
(٨) الفرقان: ٤٨.

الموزَّع في محيطات وبحار وأنهار، واليابسة تقدَّر بربع مساحة الأرض، والأمر نفسه ينطبق على الإنسان، إذ السوائل تشكِّل ٧٠ بالمئة من مكوِّنات جسم الإنسان، وعندما تنقص هذه السوائل أكثر من ٢٠ بالمائة، فإنّ الحياة تتوقَّف في الجسد ويموت الإنسان.

وتفيد مراجعة مسألة الثروة المائية أنّ كمّيّة الماء الموجودة في الأرض هي حوالي ٣٦٠ مليار متر مكعب، والموجود منها في المحيطات والبحار هو قرابة ٩٧ بالمائة، و٣ بالمائة هو حجم المياه العذبة التي تختزن الأرض منها حوالي الثلث، وتسمّى مياهاً جوفية، والباقي ظاهر في ينابيع وأنهار وبحيرات عذبة. هذا دون أن يغيب عن البال أنّ جزءاً من الماء قد تكوَّن في كتل من الجليد لها دور في التوازن البيئي، ولو حصل وذابت هذه الجبال الجليدية لحصل خلل كبير، نتائجه البيئية غير مأمونة الجانب.

ويستهلك سكّان المعمورة ما يقارب ٦٠٠٠ كيلومتر مكعب من المياه، نصيب الزراعة منها حوالي ٧٠ بالمائة، وبحدود ٢٠ بالمائة أو أكثر بقليل هو ما تحتاجه الصناعة، وأمّا الاستخدام المنزلي عالمياً فهو يتراوح بين ٨ إلى ١٠ بالمائة. لذلك اتّجهت الجهود إلى تحلية كمّيّات من المياه المالحة لسدّ الحاجات المتنامية مع ازدياد السكان والتطوّر الحضاري.

التحدّيات المائية وسبل المعالجة:

إنّ مواقع المياه مصادر أساسية للثروات، فالماء شراب وللاستخدام في الطبخ والتنظيف، وللري، وبدونه لا زراعة ولا نبات، وهو حاجة للثروة الحيوانية، ومصدر للثروة السمكية، ولثروات كثيرة، كالملح، واللؤلؤ، والإسفنج، وغيرها. فهو أساس في التوازن الطبيعي. ولكلّ ذلك فمن الواجب على كلّ إنسان ومؤسّسة حكومية أو أهليّة أو إقليميّة أو دوليّة الانتباه إلى حركة الاستهتار بالثروات، ومنها: الثروة المائية. وهذا الاستهتار الذي يتمثّل في التبذير، إنّما هو معصية لأمر الله تعالى، وهو

سبحانه القائل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[١].

وفي الحديث النبوي الشريف: «**إنّ رسول الله ﷺ مرّ بسعد بن أبي وقّاص وهو يتوضّأ، فقال: ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهرٍ جارٍ**»[٢].

أمّا التحدّيات، فإنّها تعديلات على الثروة المائية يقوم بها البشر مخالفين العدل الإلهي الذي أمرنا التزام الموازين الدقيقة في كلّ أمر نقوم به، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٣]. وحين يتلاعب الناس بالسنن الناظمة لحركة المخلوقات وعلاقات بعضها مع بعضها الآخر، وحين يعيثون فساداً في الطبيعة تحصل الكوارث والمآسي. وفيما يتعلّق بالماء، فإنّ أبرز المخالفات والتعدّيات هي:

- الإسراف في استخدام الماء، وهدر الثروات المائية.
- التلوّث الحاصل من الأسباب التالية:
- مياه الصرف الصحيّ، أو المياه المُبتذلة، التي حوَّلها بعضهم إلى مجاري الأنهار، أو إلى البحار والبحيرات، أو جعلوها في جوف الأرض بشكل عشوائي.
- إلقاء مخلَّفات المصانع، وبقايات الحيوانات والأجزاء العضوية في الماء، ومنها ما يكون فيه إشعاعات نووية، أو مركَّبات كيماوية أخرى.
- النفط والزيوت التي تُحدِث تلوثاً كبيراً، بفعل حدوث أعطال في ناقلات هذه المواد، أو بسبب الحروب والتفجيرات.
- استخدام المبيدات الحشرية والمخصّبات الزراعية دون علم ولا أساليب استعمال قويمة.
- إلقاء القُمامة على ضفاف الأنهار أو عند الشواطئ بحريّة بغرض

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) القزويني، محمد بن يزيد: سنن ابن ماجة، تحقيق وترقيم وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، لاط، لام، دار الفكر، لات، ج١، باب٤٨ من أبواب كتاب الطهارة...، ح٤٢٥، ص١٤٧.

(٣) الرحمن: ٩.

الصيد، واستخدام التيار الكهربائي – أحياناً – لغرض الصيد، أو إجراء تجارب نووية تحت سطح البحار، وما جرى في مدينة (إزميت) التركية عام ٢٠٠٠م خير دليل، حيث سبّبت تجارب تفجيرية تحت سطح البحر قام بها الحلف الأطلسي ارتجاجات وتصدّعات كادت تغرق المدينة بكاملها.

بعد هذا العرض للتعديلات على الثروة المائية يصل الحديث إلى تحديد بعض سبل المعالجة وخطواتها، وهي:

- بناء السدود والخزّانات لجمع المياه من الأمطار، أو الأنهار والجداول، وإقامة محطّات المعالجة للمياه المبتذلة، لإعادة استخدامها، فذلك يؤمّن كمّيّات من المياه الصالحة للري، ويحمي الطبيعة بكلّ مكوّناتها من التلوُّث، يضاف إلى ذلك إقامة محطَّات التحلية والتكرير لمياه البحار ومحطّات تأمين المياه العذبة الإضافية عند لزوم الحاجة إلى هذه المياه.
- إعداد برامج التوعية الكفيلة بنشر ثقافة المحافظة على الثروة المائية، والارتقاء في أساليب الاستفادة منها. وهذه التوعية يجب أن تشمل كلّ الفئات العمرية، ويجب أن تكون في البرامج التعليمية والمقرّرات الدراسية، وخطب المنابر والوعظ والإرشاد الديني. هذا بالإضافة إلى إعطاء مساحات واسعة لهذه التوعية في وسائل الإعلام بكلّ أنواعها وميادينها.
- سنّ القوانين والتشريعات لحماية الثروة المائية في كلّ مواقعها، وذلك على مستوى كلّ دولة، وفي المنظَّمات الإقليمية والدولية، وأن يصار إلى إضافة نصوص أصيلة في (القانون الدولي الإنساني)، لأنّ الثروة المائية تمثّل العنصر الأساس في حاجات المخلوقات الحيّة وهي تستحق مستوى أرفع من الاهتمام، وبعد ذلك يأتي دور العقوبات وفرض القصاص على من يخالف هذه القوانين.
- حظر إلقاء أيّ مخلّفات صناعية أو عضوية في المياه، وكذلك أيّ

مركّبات كيماوية تؤذي الكائنات المائية الحيّة، وتشديد الرقابة على المخصّبات الزراعية ومبيدات الحشرات، ومنع المزاجية في استخدام مثل هذه الأشياء.

- رفع مستوى العناية والتأهيل في وسائل نقل النفط وسائر الزيوت وأدواتها، ووضع قوانين حماية لها من العدوان، لأنّ بقع الزيوت من أخطر أنواع التلويث.
- فرض التشريعات الكفيلة بحفظ الهواء نقياً، لأنّ وجود أيّ مركّبات مؤذية في الهواء، ومع الغبار، سيكون لها آثارها السلبية حين تختلط مع الأمطار التي تنزل من السماء، فيصل ماء المطر إلى الأرض ملوَّثاً قبل أن يتَّخذ موقعه في المياه الجوفية أو الأنهار والبحار أو الريّ والاستخدام.
- القيام بحملات نظافة، بين كلّ فينة وأخرى، تشمل مجاري المياه ومصادرها في الينابيع والآبار، وشواطئ البحار، ليكون ذلك عملاً وقائياً يعطِّل حالات التلوّث.

خاتمة:

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالكثير، ولا يمكن إحصاء نعم الله ولا عدّها، ولكنّ الإنسان مطالب بالحفاظ على هذه النعم الظاهرة وغير الظاهرة، بدءاً من نعمة العقل والجسد، إلى ما سخّره له تعالى في البرّ والبحر. وعندما يعصي الإنسان ربَّه، ويتلاعب بالسنن الكونية أو يعتدي عليها، أو يمارس ما يخالف الفطرة، يكون قد جنى على نفسه وعلى أقرانه من الاجتماع البشري.